الفصل الأول

أسرة عمر

وحياته الشخصية من الميلاد الى الوفاة

لم يكن أبو حفص عمر بن عبد العزيز (٦١ - ١٠١هـ/ ٦٨١ - ٧٢٠م) رجلاً مغموراً في أسرته بني أمية ، وإنما كان علَماً مشهوراً بالصلاح والاستقامة ، والمرونة والخصافة ، فهو قرشي أصيل ينتمي الى بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، بن قصي الجدّ الخامس للرسول ﷺ ، وزعيم قريش الذي أسس مجدها ، وكان أمية يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف ، وكانا يتنافسان رئاسة قريش في الجاهلية .

وللنسب والسلالة الأصيلة تأثير كبير في تكوين الرجال ، وأصالة النسب تنتج آثارها الناضجة الطيبة إذا استقامت على أمر الإسلام ونهجه ؛ لأن «الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهوا» [1] كما أبان النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد اجتمع الأمران معاً لعمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فعمر بن

(١) أخرجه الطيالسي وابن منيع والحارث والبيهقي عن أبي هريرة ، ورواه العسكري عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ : «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة» (كشف الخفا للعجلوني) .

الخطاب(المتوفى سنة ٢٣هـ / ٦٤٤م) رضي الله عنه جده لأمه، وكنيته أبو حفص مثل كنية عمر جده ، وعمر بن الخطاب هو الذي نصح ابنه عاصماً بالزواج من الفتاة الهلالية التي أبت غش اللبن في عهد عمر ، فقال له : «اذهب يابني ، فتزوجها ، فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب!» ونصيحته في محلها ؛ لأن العرق دساس ، وصلاح الأصول يسري في الذرية والفروع ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «الناس معادن ، والعرق دساس ، وأدب السَّوْء كعِرْق السوء» [1] وقوله أيضاً : «تخيروا لنطفكم ، فأنكحوا الأكفاء ، وانكحوا إليهم»[2] . وقد ورث عمر عن جده ابن الخطاب كثيراً من شمائله من إيثار الحق ومناصرة العدل ، والعفة والورع والتقوى والجرأة في الحق .

وأبوه عبد العزيز بن مروان والي مصر الذي توفي في جمادى الأولى سنة ٨٦ هـ قبل وفاة أخيه الأكبر الخليفة عبد الملك بن مروان في شوال ٨٦هـ ، أي بنحو خمسة أشهر .

وجده المباشر لأبيه مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥هـ) شيخ بني أمية وقريب عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين ، وساعده وكاتبه ومدبر أمره .

وهو من أبناء عمومة معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/ ٦٦١ - ٦٨٠م) مؤسس الدولة الأموية

وجدته أم أمه فتاة من بني هلال التي أبت غش اللبن في عهد عمر ؛ لأن الله تعالى يراها ، وهي زوجة عاصم بن عمر ، وابنتها أم عاصم زوجة عبد العزيز بن مروان ، وأمه أم عاصم هذه .

وعمه الخليفة العظيم عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ/ ٦٨٥ - ٧٠٥م) أحد كبار فقهاء المدينة الذي أخذ عمر بن عبد العزيز عندما مات أبوه ، فرباه

---

(١) رواه البيهقي عن ابن عباس ، وهو ضعيف ، ورواه الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً (المرجع السابق)

(٢) رواه ابن ماجه والبيهقي والحاكم عن عائشة ، وهو حديث صحيح .

وخلطه بأولاده ، وقدمه على كثير منهم ، وزوجه بابنته فاطمة . وبويع له بالخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م) .

وزوجته فاطمة بنت عمه الخليفة عبد الملك ، التقية الصالحة الرشيدة البارة بزوجها، المشاركة له في تحمل بعض أعباء الخلافة: ﴿والطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات﴾ (سورة النور: ٢٦).

فعمر بن عبد العزيز قبل استخلافه أمير وابن أمير عظيم ، ومن سلالة الأتقياء الطاهرين ، فصار الدم الطاهر والمحتد الكريم والجوهر النقي والأصل الطيب متمثلاً كله في عمر: ﴿ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم﴾ (سورة آل عمران: ٣٤) وكذا الفروع بطيب أصلهن تطيب ، بل إن بني أمية في الجملة قوم صالحون ، حافظوا على هيبة الدولة ، وفتحوا الفتوح ، قال عبد الله بن طاوس : رأيت أبي تواقف هو وعمر بن عبد العزيز من بعد صلاة العشاء حتى أصبحنا ، فلما افترقا ، قلت : ياأبت ، من هذا الرجل ؟ قال : هذا عمر بن عبد العزيز ، وهو من صالحي هذا البيت ، يعني بني أمية [١].

هذه ملامح المنشأ والأصل لعمر ، وتبدو واضحة في تتبع أدوار حياته من الميلاد الى الوفاة بنحو مفصل [٢]

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٤

(٢) انظر شذرات الذهب للذهبي : ١/ ١١٩ ، تاريخ الإسلام للذهبي : ٤/ ١٦٤ ، ط القدسي ، تهذيب التهذيب لابن حجر : ٧/ ٤٧٠ ، صفة الصفوة : ٢/ ٦٣ وما بعدها ، خلاصة تذهيب الكمال : ٢/ ٢٧٤ ، تقريب التهذيب : ٢/ ١٩٢ ، فوات الوفيات : ٢/ ٢٠٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٩/ ١٩٢ وما بعدها ، سيرة عمر لابن عبد الحكم ، ص ٢٤ وما بعدها ، ١١٢ - ١١٦ ، أخبار عمر للآجرى : ص ٨٣ - ٨٦ تاريخ الخلفاء : ص ٢٢٨ ، ٢٤٤ وما بعدها .

١ ـ اسمه وكنيته ولقبه وميلاده :

• هو أبو حفص ، عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكَم بن أبي العاص ، بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، القرشي الأموي ، أمير المؤمنين ، الخليفة الصالح ، خامس الخلفاء الراشدين .

ولد بالمدينة سنة ستين عام توفي معاوية ، كما جاء في تاريخ البخاري وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (٧٦٤هـ) ، وقيل : إنه ولد سنة إحدى وستين وهي السنة التي قتل فيها الحسين بن علي رضي الله عنه كما قرر النووي في تهذيب الأسماء واللغات، والسيوطي في تاريخ الخلفاء، ثم أقام في مصر فهو مصري إقامة أحياناً ، مدني ولادة ونشأة وتربية وتثقيفاً ، ثم والياً على المدينة وعلى الحجاز كله ، شامي وزيراً لسليمان ، ثم خليفة وإماماً للمسلمين عامة . والراجح أنه ولد بالمدينة، لأن أباه عبد العزيز لم يكن والياً على مصر سنة ٦١ وهـ ، وإنما كان الوالي هو مَسْلَمة بن مُخَلَّد (١ ـ ٦٢ هـ)، وتولى عبد العزيز إمرة مصر سنة ٦٥ هـ.

له مأساة في مصر أو في الطريق إليها ، فقد يمم شطر مصر من المدينة لزيارة والديه وإخوته ، وهو حدث صغير ، فسقط عن بعير له ، فشج رأسه وسال الدم منه .

وبعد هذه الواقعة لقب عمر بالأشج ، وكان يقال له : أشج بني مروان . واشتهر هذا اللقب بين الناس ، وتأكدت الأخبار ، وصدَّق الواقع انطباق هذا اللقب على عمر بعد استخلافه ، فكان يقال ، الأشج والناقص أعدلا بني مروان ، والأشج هو عمر بن عبد العزيز ، والناقص هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك .

أما الأشج عمر فكان خليفة صالحاً تقياً عدلاً ، ومثلاً صحيحاً صادقاً لتطبيق الإسلام في العبادة والسياسة والحكم والإدارة .

رأى رجل في المنام ليلة ولد عمر بن عبد العزيز أو ليلة ولي الخلافة أن منادياً

بين السماء والأرض ينادي : أتاكم اللّين والدين واظهار العمل الصالح في المصلين ، فسأل الرائي : ومن هو ؟ فنزل فكتب في الأرض ع م ر[1] . وتفرس سليمان بن عبد الملك في عمر بن عبد العزيز ، حيث قال : «والله لأعقدن عقداً ليس للشيطان فيه نصيب ، فعقد لعمر بن عبد العزيز[2] .

وأما الناقص : فهو يزيد الثالث ابن الوليد بن عبد الملك بن مروان (١٢٦هـ/ ٧٤٤م) الذي كان تقياً ورعاً متمسكاً بأصول الدين ، وعد في خطبة البيعة بتحصين الحدود ، وإقامة الحاميات في المدن ، ورفع الظلم عن العباد ، وعزل الحكام الظالمين ، لكنه لم يعش لينجز مشروعه الذي صرح به . وقد لقب بالناقص ؛ لأنه أنقص أعطيات الجند الى ماكانت عليه في زمن هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٤ - ٧٤٣م) بعد أن زادها الوليد الثاني (١٢٥ - ١٢٦هـ/ ٧٤٣ - ٧٤٤م)

٢ - جده عمر بن الخطاب :

عمر بن عبد العزيز سليل جده لأمه الفاروق عمر بن الخطاب ، مما أظهر كرم عنصره ، وشرف محتده ، ومدى تأثره بمنهج عمر في الحكم والسياسة والقضاء ، وحب العدل ؛ وتفقد أحوال الرعية ، وإعلان الحق ، والحزم والصراحة. ومن نشاطات عمر الجد أنه في ذات ليلة خرج كعادته في المدين يعسّ (يطوف في الليل لتفقد أحوال الرعية)، ومعه أسلم مولاه، فبينما هو يطوف ويتفقد أحوال الرعية إذ عيي فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، وكان في خلافته قد نهى عن مَذْق اللبن بالماء، وإذا بحوار مثير عاصف بين امرأة وابنتها:

قالت الأم لابنة لها : قومي الى ذاك اللبن فامذُقيه بالماء .

فقالت الابنة : يا أمتاه ، أوما علمت بما كان من عَزْمة أمير المؤمنين !

قالت الأم : وماكان من عزمته يابنية ؟

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٢

(٢) ابن عبد الحكم : ص ٢٣

فقالت البنت : إنه أمر مناديَه ، فنادى ، لايشاب اللبن بالماء

فقالت الأم : يابنية قومي الى اللبن ، فامذُقيه بالماء ، فإنه بموضع لايراك عمر ، ولامنادي عمر .

فقالت البنت : يا أماه ، إن كان عمر لايعلم ، فإلـه عمـر يعلـم ، والله ما كنت لأطيعَه في الملأ ؛ وأعصيه في الخلاء .

وكان عمر يسمع ذلك كله ، فوقعت مقالتها في نفسه موقعاً عظيماً فقال : يا أسلم : علِّم الباب ، واعرف الموضع .

فلما أصبح قال : يا أسلم امض الى الموضـع ، فانظـر من القائلـة ومـن المقول لها ، وهل لهما من بَعْل - زوج ؟

فأتى أسلم الموضع ، فإذا الجارية من بني هلال ، أيِّم لا بعل لها ، وإذا الأم لابعل لها أيضاً ، فأخبر عمر بخبرهما .

فدعا عمر أولاده عبد الله وعبد الرحمن وعاصماً ، وقـال : هل فيكم من يحتاج الى امرأة فأزوجه ؟ لوكان بأبيكم حركة الى النساء ،ما سبقه منكم أحد الى هذه الجارية .

فقال عبد الله : لي زوجـة ، وقـال عبـد الرحمـن : لي زوجـة ، وقـال عاصم : ياأبتاه لا زوجة لي، فزوجني .

فبعث عمر الى الجارية ، فزوجها عاصماً ، فولدت له محمداً وبنتـاً هي ليلى ، ولقبها أم عاصم ، فتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحـكم ، فأتـت بعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه [1]

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب للأستاذ علي الطنطاوي وأخيه ناجي : ٢/ ٦٦٧ ومابعدها ، سيرة عمر بن عبـد العـزيز لابـن عبـد الحـكم : ص ٢٢ ، أخبـار عمـر للآجـري : ص ٤٨ ومابعدها .

وكان عمر بن عبد العزيز في صغره يتردد الى ابن عمر في المسجد النبوي ويحفظ عنه الحديث النبوي ، ثم يعود الى أمه أم عاصم قائلاً لها ، ياأماه أنا أحب أن أكون مثل خالي ـ أي ابن عمر ، فتجيبه أمه ببشاشة : أنت تكون مثل خالك ، تكرر ذلك عليه غير مرة [1]

ويتفرس عبد الله بن عمر في هذا الغلام الحدث ، فيجد فيه ملامح النجابة والخير ، وكونه أشبه بأهل بيت عمر ، فحينما كبر وولي أبوه عبد العزيز إمرة مصر ، كتب الأب الى زوجته أم عاصم أن تقدم عليه وتقدم بولدها ، فأتت عمَّها عبد الله بن عمر ، فأعلمته بكتاب زوجها عبد العزيز إليها ، فقال لها ، ياابنة أخي ، هو زوجك فالحقي به . ثم استدرك لما أرادت الخروج ، فقال لها :

«خلِّفي هذا العلام عندنا ـ يريد عمر ـ فإنه أشبهكم بنا أهل البيت» فخلفته عنده ولم تخالفه . فسرّ بذلك عبد العزيز وأوصى به أخاه عبد الملك بن مروان ، فأجرى عليه ألف دينار في كل شهر ، ثم قدم عمر على أبيه بعد ذلك مسلِّماً عليه ، فأقام عنده ماشاء الله [2]

وتمر السنون والأيام بعد وفاة الجد عمر بن الخطاب (٢٣هـ) فاستخلف عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ .

٣ ـ أبوه عبد العزيز بن مروان :

بدأت ولاية عبد العزيز بن مروان في مصر أول رجب سنة ٦٥ هـ حين ولاه أبوه مروان بن الحكم ورسم له منهاج سياسته ، وخطة عمله الذي أحس بخطورته ، وأن المسألة ليست تشريفاً ، وإنما هي تكليف بأفعال كبيرة ، فسأل

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ٢٤

(٢) المرجع والمكان السابق

عبد العزيز أباه : «ياأمير المؤمنين ، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني مروان ؟» فقال له مروان :

«يابني ، عُمَّهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك ، واجعل وجهك طَلْقاً ، تصْفُ لك مودتهم ، وأوقع الى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن عَيْناً لك على غيره ، وينقد قومه إليك ، وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وماعليك يابني أن تكون أميراً بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك ، وخمولك في منزلك» [1]

فقام عبد العزيز بواجبه خير قيام ، معتمداً على الحكم المركزي إلى أقصى حد ، ونهض بالأعمال العمرانية ، فاختط مدينة حلوان ، وقلَّد الخلفاء والأمراء في ضرب الدنانير ، وبنى دار الأضياف ، وعاش في ترف ، لكنه كان تقياً ورعاً ، يعظم شرع الله تعالى ، فيميز بين الحلال والحرام ، وبين الخبيث والطيب ، ملتزماً وصية أبيه مروان ، قال :

«أوصاني مروان حين ودعته عند مخرجه من مصر الى الشام ، فقال : أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيتك ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وأوصيك ألا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً ، فإن المؤذنين يدعون الى فريضة افترضها الله عليك . إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ، وأوصيك ألا تعد الناس موعداً إلا أنفذته ، وإن حُمِلْتَ على الأسنَّة ، وأوصيك ألا تعجل في شيء من الحكم حتى تستشير ، فإن الله عز وجل لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى نبيه محمداً ﷺ عن ذلك بالوحي الذي يأتيه ، قال الله عز وجل : وشاورهم في الأمر» [2] .

هذه النصائح تنبىء عن أخلاق مروان وسياسته وتجاربه في الإدارة ، وتتلخص في البر والإحسان ، وتنفيذ الوعود ، وإقامة الصلاة ، وتقوى الله في السر والعلن ، واتباع أسلوب الشورى في الحكم والقضاء .

---

(١) الولاة والقضاة للكندي : ص ٤٧

(٢) المرجع السابق : ص ٤٧ ومابعدها

وحين أراد عبد العزيز الزواج ، اتبع قواعد الإسلام في اختيار ذات الدين والمعدن الطيب ؛ لأن العرق دساس ، وحرص أن يكون مهر زوجته من أنقى المال الحلال ، فأمر مساعده قائلاً : «اجمع لي أربعمائة دينار من طيب مالي ، فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح» فجمع له ما أراد ، وتزوج بأم عاصم ليلى بنت الفتاة الهلالية التقية الطائعة الورعة أم عمر بن عبد العزيز [1] .

٤ ـ أمه أم عاصم :

أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب هي أم عمر بن عبد العزيز [2] رضي الله عنهم ، تزوجها عبد العزيز بن مروان كما بينا ، فولدت له عمر وإخوة له ، ثم توفيت عنده ، فتزوج بأختها حفصة بمصر ، وهو أمير عليها .

وقد تأثرت أم عاصم بصبغة بيت عمر بن الخطاب ، فعاشت زاهدة متقشفة ، ومالت إلى العبادة والطاعة ، وربّت أولادها على حب الإسلام وأخلاقه ، وصدرت منها أفعال تتسم بالبر والإحسان والجود والمروءة ، فانطبعت أخلاق عمر بن عبد العزيز ابنها البار بأخلاقها ، وازدانت شخصيته بشمائلها ، فحملت أصوله النسبية إلى أسرته بني أمية نسباً جديداً ، وخلقاً جديداً ، كان له أثر واضح في منهج عمر حينما ولّي الخلافة .

٥ ـ إخوته الأشقاء :

كان عبد العزيز بن مروان متزوجاً بأكثر من زوجة قبل إمارته على مصر ، فمن زوجاته ليلى بنت سهل بن حنظلة ، بن الطفيل من بني كلاب ، التي ولدت

(١) صفة الصفوة : ٢/ ٦٣ ومابعدها

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٢

له «أم البنين» وتزوج زوجتي مسلمة بن مخلد الوالي السابق على مصر بعد وفاته، وهما أم كلثوم الساعدية، وأروى بنت راشد الخولاني، وكان له أولاد من هذه الزوجات منهم الأصبغ ابنه الأكبر ، لأنه كان يكنى بأبي الأصبغ ، ومنهم سهيل ، ومنهم أم البنين التي تزوجها الخليفة الوليد بن عبد الملك .

أما إخوة عمر الأشقاء فهم ثلاثة : أبو بكر ، وعاصم ، ومحمد . ولكن أشهر أولاد عبد العزيز هو عمر الذي ولي خلافة الدولة الإسلامية من سنة ٩٩ هـ الى ١٠١ هـ بعد وفاة الخليفة ابن عمه سليمان بن عبد الملك .

وكان آل الخطاب يفردون عمر من بين أشقائه بالتكريم ؛ لأنه كان شبيه أبيهم ، قال ابن عمر لأمه حينما عزمت على السفر الى زوجها في مصر : «خلّفي هذا الغلام عندنا ، فإنه أشبهكم بنا أهل البيت» . وقد تكفل الله سبحانه بعمر بن عبد العزيز بعيداً عن أبيه وإخوته ، فنشأ وترعرع في المدينة مهبط الوحي ، ومقر الهجرة ، ومثوى النبي ﷺ ، وموطن المهاجرين والأنصار ، وتعلّم فيها حتى بلغ رتبة الاجتهاد ، وروى الحديث ، ودرس الأدب ، ونظم الشعر ، حتى قيل : «كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة» [1].

٦ ـ زوجاته وأولاده :

تزوج عمر بن عبد العزيز كأبيه بأكثر من زوجة ، أولاهن فاطمة بنت عبد الملك ، فلما مات أبوه عبد العزيز والي مصر ، أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، فخلطه بولده ، وقدمه على كثير منهم ، وزوجه بابنته فاطمة ، وأقيمت الأفراح في الشام بهذا الزواج من فاطمة التي قال الشاعر فيها :

بنتُ الخليفة ، والخليفة جدها أخت الخلائف ، والخليفة زوجها

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٤

قال المؤرخون : ولا نعرف امرأة بهذه الصفة الى يومنا هذا سواها [1] وفاطمة الزوجة الحسناء التي كانت من أحسن النساء ، النسيبة بنت الخليفة وربيبة القصور ، كانت ذا عقل كبير وتدين عظيم ، كما يتبين من قصصها مع زوجها ومن أقوالها التي سنذكر بعضها ، وقد هنأه الناس قاطبة بهذا الزواج ، فقال عبد الملك بن مروان لعمر يوماً : «قد زوجك أمير المؤمنين فاطمة بنت عبد الملك» فسر عمر بهذا النبأ ، وقال : «وصلك الله ياأمير المؤمنين ، فقد أجزلت العطية ، وكفيت المسألة» وقال عمارة بن غزية : «لما بنى عمر بن عبد العزيز بفاطمة بنت عبد الملك ، أسرج في مسارجه تلك الليلة : الغالية» [2]

وكان هذا الزواج موفقاً ، وقضى عمر مع فاطمة قبل استخلافه أياماً سعيدة حلوة في «دابق» وكان عمر يتذكر هذه الأيام ، ويذكّر بها فاطمة .

وكان له اثنا عشر ولداً ، فقد تزوج عمر لميس بنت علي بن الحارث ، ورزق منها عبد الله وبكراً وأم عمار، وتزوج أم عثمان بنت شعيب بن زيان، وكان له منها ابراهيم . وتزوج أم مشام بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكانت أجمل نساء قريش ، بعد وفاة زوجها عبد الرحمن بن سهيل بن عمرو . وكان لعمر ولد اشتهر اسمه عبد الملك ، عرف بالتقوى والورع وكثرة العبادة وتذكير والده بمصالح الرعية، وكان عمر يحبه ويقدره ويقول فيه"[3] «الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على أمر ديني» . لكنه مات في حياة أبيه ، فقال فيه عند دفنه : «والله يابني لقد كنت براً بأبيك ، والله مازلت منذ وهبك الله لي مسروراً بك ، ولا والله ماكنتُ قط أشد سروراً ولا أرجى لحظي من الله فيك منذ وضعتك في المنزل الذي صيرك الله إليه ، فرحمك الله ، وغفر لك ذنبك ، وجزاك بأحسن عملك ، ورحم كل شافع يشفع لك بخير من شاهد وغائب ، رضينا بقضاء الله وسلمنا لأمره» .

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٣

(٢) الغالية : أخلاط من الطيب

(٣) صفة الصفوة : ٢/ ٧٢ ـ ٧٤

وكانت فاطمة ذات الصدارة الأولى بين زوجات عمر ، وله معها قصص وحكايات ، ولها فيه أقوال خالدة . فمن ذكرياته معها قبل الخلافة وبعدها :

ـ مرَّ عمر بن عبد العزيز ذات يوم بفاطمة زوجته ، فضرب على كتفها ، وقال : يافاطمة ، لَنحن ليالي دابق أنعمُ منا اليوم . فقالت : والله ، ما كنتَ على ذلك أقدرَ منك اليوم ، فأدبر عنها وله حنين وهو يقول: يا فاطمة، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم[1] .

وهذا دليل واضح في تغير حالة عمر بعد الخلافة ، وإحساسه الشديد بتبعات الخلافة ،واعتقاده أنه مسؤول عن كل شاردة وواردة في الرعية وأحوالهم ، وفي البلاد وأوضاعها ، وفي الإسلام ودعوته ، مما صرفه عن الاهتمام بزوجته فاطمة .

ـ وبلغ به الأمر أنه بعد استخلافه خيرٌ امرأته فاطمة بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها ، وبين أن تلحق بأهلها ، فبكت وبكى جواريها لبكائها ، فسمعت ضجة في داره ، ثم اختارت مقامها معه على كل حال ، رحمها الله . وخير أيضاً جواريه ، فقال : «قد نزل بي أمر قد شغلني عنكن ، فمن أحب أن أعتقه أعتقته ، ومن أحب أن أمسكه أمسكته ، وإن لم يكن مني إليها شيء» فبكين إياساً منه .

ـ ودخل عقبة بن نافع القرشي على فاطمة بنت عبد الملك ، فقال لها : ألا تخبريني عن عمر ؟ فقالت: ما أعلم أنه اغتسل ، لا من جنابة ولا من احتلام منذ استخلفه الله حتى قبضه [2] .

ولكن هذا الكلام المؤثر في النفس حقاً المبين مدى اهتمام عمر بشؤون الخلافة وتفرغه الكامل لها محل نظر أو شك لدي، إذ يبعد عن فقيه مجتهد عامل بالإسلام حقاً

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم : ص ٤٩ وما بعدها

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٨

(٣) حلية الأولياء : ٥/ ٢٥٩ وما بعدها ، ابن عبد الحكم : ص ٥٢ .

مثل عمر أن يعطل حقوق الزوجية ، ويهمل واجب امرأته ، وحقها عليه في المتعة ، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح «إن لربك عليك حقاً ، وإن لنفسك عليك ، وإن لزوجك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه» إلا إذا جرينا على رأي بعض الفقهاء كالإمام الشافعي الذي لايوجب على الرجل إعفاف امرأته إلا مرة واحدة وهو الدخول بعد الزفاف ، والحق أنه كان قد اعتزل النساء وشغل بالخلافة ، لكن الرواية الصحيحة هي: ما اغتسل من جنابة منذ ولي حتى لقي الله غير ثلاث مرات [1]

ـ ومن أعاجيب قصص عمر مع زوجته فاطمة : أنه قال لها ـ وكان عندها جوهر ، أمر لها أبوها به لم ير مثله ـ : اختاري إما أن تردي حليك إلى بيت المال ، وإما أن تأذني لي في فراقك ، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت واحد . قالت: لا ، بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لي، فأمر به فحمل حتى وضع في بيت مال المسلمين ، فلما توفي عمر ، واستخلف يزيد ، قال لفاطمة : إن شئت رددته عليك ؟ قالت : فإني لا أشاؤه ، طبت عنه نفساً في حياة عمر ، وأرجع فيه بعد موته ؟ لا ، والله أبداً . فلما رأى ذلك قسمه بين أهله وولده [2] .

هذا هو الإخلاص والوفاء من فاطمة لزوجها ، وهذا هو العقل الراجح الكبير الذي تميزت به فاطمة في تفضيلها البقاء مع زوجها ، وتنازلها عن حليها ، ومعاونة الخليفةفي رد ما يملكه وتملكه زوجته الى بيت المال، ليكون أسوة حسنة في رد المظالم للرعية ، وقدوة عالية لهم في البدء بنفسه وأسرته ، إنه نمط فريد ، وسمو وترفع عن مفاتن الدنيا وزخارفها .

ـ ويتذاكر الخليفة عمر مع فاطمة في القضايا العامة ، ويبثها أحزانه وآلامه ، ومشاعره وإحساسه بالتبعة العظمى ومسؤوليته عن الأمة ، فيبكي وتبكي معه ، فقالت زوجته فاطمة :

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ٥٢

(٢) حلية الأولياء : ٥/ ٢٨٣

دخلت يوماً عليـه ، وهو جالس في مصلاه ، واضعاً خده على يده ودموعه تسيل على خديه ، فقلت : مالكَ ؟ فقال : ويحك يافاطمة ، قد وليـت من أمر هذه الأمة ماوليـت ، فتفكـرت في الفقير الجائع والمـريض الضائع ، والعاري المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيـدة ، والمظلوم المقهور ، والغريـب والأسير ، والشيخ الكبير ، وذي العيال الكثير ، والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربي عز وجل سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ ، فخشيت ألا يثبت لي حجة عند خصومته ، فرحمت نفسي فبكيت[1] .

ـ ويظهر صدق عاطفة فاطمة ، وحرارة حبها وتقديرها لعمر ، ومشاركتها الوجدانية في أحوال أخرى ، حينما جاءه واعظ يذكره بالقبر وساكنه ، فخر مغشياً عليه ، فقامت تصب على وجهه الماء ، وتبـكي حتـى أفـاق من غشيتـه ، فرآهـا تبكي ، فقال : مايبكيكِ يافاطمة ؟ قالت : ياأمير المؤمنين ، رأيت مصرعك بين أيدينا ، فذكرت به مصرعك بين يدي الله للموت ، وتخليك من الـدنيا وفراقـك لنا ، فذاك الذي أبكاني . فقال :

حسبك يافاطمة : فلقد أبلغت ، ثم مال ليسقط ، فضمتـه الى نفسهـا ، فقالت : بأبي أنت ياأمير المؤمنين ، مانستـطيع أن نكلمـك بكل مانجـد لك في قلوبنا . فلم يزل على حاله تلك حتى حضرته الصلاة ، فصبت على وجهه ماء ، ثم نادته : الصلاة ياأمير المؤمنين ، فأفاق فزعاً [2] .

ـ وتتوجت صلة فاطمة بزوجها الخليفة عمر بهذه التزكية الخالدة التي تذكرنا دائماً بشخصيته ، حينما قالت عنه : «والله ما كان بأكثر الناس صلاة ، ولا أكثرهم صياماً ، ولكن والله مارأيت أحداً أخوف لله من عمر ، لقد كان يذكر الله في فراشه ، فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف ، حتى نقول : ليُصْبحنَّ الناس ، ولا خليفة لهم»[3] .

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠١

(٢) حلية الأولياء : ٥/ ٢٦٨ وما بعدها ، صفة الصفوة : ٢/ ٦٨

(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم : ص ٤٩

٧ ـ صفاته الجسدية وعاداته :

قد يكون جمال الخلقة دليلاً على جمال النفس ، فإذا اجتمعت هاتان الصفتان ، أحرز الإنسان نوعاً من الكمال ، وكان هذا متوافراً في عمر ، فجمال نفسه وخلقه معروف ، ضم إليه جمال الصورة والتكوين الالهي ، قال الله تعالى : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ (التين : ٤) .

كان أبيض ، رقيق الوجه ، جيده ، نحيف الجسم ، حسن اللحية ، غائر العينين ، بجبهته أثر حافر دابة ، فسمي «أشج بني أمية» وكان قد شاب وخضب شعره ، ثم عاجله الصلع ، كجده عمر ، قالوا : كان عمر بن الخطاب أصلع ، وعثمان ، وعلي ، ومروان بن الحكم ، وعمر بن عبد العزيز ، ثم انقطع الصلع عن الخلفاء .

وكانت مظاهر النعمة ، وبنوة الإمارة ، وعزة البيت الأموي ، والتأثر بهيبة الملك ورفاهية الحكام تظهر على عمر في شبابه في اختياله بمشيته ، وفي انتشار الروائح الطيبة التي يعطر بها نفسه ، فكان يتطيب بالعنبر ، فتبتل يده به ، ولكن تبدلت أحواله كلها بعد الخلافة ، فلم يكن له غير ثوب واحد ، وتواضَعَ في مشيته وفي تعامله مع الناس ، وتقشّف وزهد ، قال رجاء بن حَيْوة : كان عمر بن عبد العزيز من أعطر الناس ؛ وألبس الناس ؛ وأخيلهم في مشيته ، فلما استخلف قوموا ثيابه باثني عشر درهماً[1] . وقال شيخ بالمدينة لأبي يوسف: رأيت عمر بن عبد العزيز وهو من أحسن الناس لباساً ، وأطيبهم ريحاً ، ومن أخيلهم في مشيته ، ثم رأيته بعد أن ولي الخلافة يمشي مشية الرهبان ، فمن حدثك أن المشية سجية ، فلا تصدقه بعد عمر بن عبد العزيز [2]

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ٢١٢ ، فوات الوفيات : ٢/ ٢٠٧ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي : ص ٢٤٤ ، صفة الصفوة : ٢/ ٦٧ ، سيرة ابن عبد الحكم : ص ٢٦

(٢) الخراج : ص ١٧

وكان السبب الأساسي في تغيير عمر عاداته : هو الخوف من الحساب بين يدي الله الواحد القهار ، كما تدل قصته مع أبي حازم سلمة بن دينار عالم المدينة وقاصها ، قال [1] :

قدمت على خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز ، وهو بخُنَاصرة [2] من أعمال حلب ، وكانت قد تقدمت به السن ، وبعد بيني وبين لقائه العهد ، فوجدته في صدر البيت ، غير أني لم أعرفه لتغير حاله عما عهدته عليه ، يوم كان والياً على المدينة ، فرحب بي ، وقال :

ادن مني ياأبا حازم ، فلما دنوت منه ، قلت : ألست أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ؟!

فقال : بلى ، فقلت : ماالذي حل بك ؟ ألم يكن وجهك بهياً ـ أووضياً ـ وثوبك نقياً ، وإهابك طرياً ، وطعامك شهياً ، ومركبك وطياً ؟

فقال : بلى ، فقلت : فما الذي غيرَّ مابك بعد أن غدوت تملك الأصفر والأبيض ، وأصبحت أميراً للمؤمنين ؟!

فقال : وما الذي تغير بي يا أبا حازم ؟! فقلت : جسمك الذي نحل ، وجلدك الذي اخشوشن ، ووجهك الذي اصفرَّ ، وعيناك اللتان خبا ومضهما .

فبكى ، وقال : فكيف لو رأيتني في قبري بعد ثلاث ، وقد سالت حدقتاي على وجنتي ، وتفسخ بطني وتشقق ، وانطلق الدود يرتع في بدني ؟ إنك لو رأيتني آنذاك ـ ياأبا حازم ـ لكنت أشد إنكاراً لي من يومك هذا . . ثم رفع بصره إلي وقال :

ألم تخبرني عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن من ورائكم عقبة كؤوداً ، مضرسة ، لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول» ثم بكى عمر حتى غشي عليه ، ثم أفاق وقال :

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٩ ، حلية الأولياء : ٥/ ٣٣٣ .

(٢) بلدة صغيرة من أعمال حلب ، في محاذاة قنسرين من ناحية البادية .

فهل تلومني يا أبا حازم إذا أنا أهزلت نفسي لتلك العقبة رجاء أن أنجو منها ، وما أظنني بناج .

ثم ذكر أنه لقي في غشيته تلك أن القيامة قد قامت ، وقد استدعي بكل من الخلفاء الأربعة ، فأمر بهم الى الجنة ، ثم ذكر من بينه وبينهم ، فلم يدر ماصنع بهم ، ثم دعي هو فأمر به إلى الجنة ، فلما انفصل لقيه سائل فسأله عما كان من أمره فأخبره ، ثم قال للسائل : فمن أنت ؟ قال : أنا الحجاج بن يوسف ، قتلني ربي بكل قتلة قتلة ، ثم ها أنا أنتظر ماينتظره الموحدون [1]

٨ ـ أسباب مبالغته في التنعم وقت الشباب :

إن علائم التفاؤل واتجاه الأنظار نحو عمر بن عبد العزيز في ريعان الشباب ، أوغر صدور الحساد من أمراء بني أمية ، بيد أنه كان قبل الخلافة على قدم الصلاح أيضاً ، إلا أن حساده عابوه لمبالغته في التنعم واختياله في مشيته ، وإفراطه في العناية بلباسه ومظهره . قال العتبي : ولم يكن حاسد عمر بن عبد العزيز ينقم عليه شيئاً سوى متابعته في النعمة ، والاختيال في المشية [1] .

لكن الثقة بالنفس والاعتزاز بها لم تؤد به الى عيب في الخلق ، أو شذوذ في السلوك ؛ لأن نقاوة الأصل وقوة التدين والصلاح والاستقامة غلبت تلك المظاهر ، ولم يحجب مظهر الشاب كأي شاب من بيت الحكم وأسرة الدولة تلك النفسية الطيبة ، فقد كان عمر على حدته مع زملائه حين يخطئون كريم المودة لهم ، حسن العشرة ، وفي الصحبة ، دائم الاتصال بهم [2] ، لم تجمح به بعض المؤثرات الخارجية ، وكونه ابن أمير ووال كبير في مصر ، فيصبح متعالياً على أقرانه . وهنا تظهر فضائله الذاتية بالرغم من وجود بواعث الكبرياء ونحوها من أمراض النفس ،

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٩/ ١٩٣ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي : ص ٢٢٩
(٢) سيرة عمر لابن الجوزي : ص ٣٣

قال الأحنف بن قيس : «الكامل : من عُدّت هفواته ، ولا تعد إلا من قلة» [1]

وهناك سبب آخر لرفاهية عمر وهو أنه وإخوته قد ورثوا من أبيهم ثروة طائلة من الأموال والمتاع والدواب ، مالم يرثه غيرهم [2] .

ولكن مشيته هذه قد بدَّلها ، وتركها بعد استخلافه ، وتعاهده بعض الصالحين بنصحه ، فقد أتاه رجل حين توفي سليمان ليعزيه وينصحه ، فقال له : ارض بقضاء الله ، وسلّم لأمره ، وارجُ ماعنده ، فإن عند الله الخيرَ الدائم ، والعوض من المصائب ، انظر إلى الذي تخشاه على سليمان ، فاخشه على نفسك ، ثم قام الرجل فقال عمر : عليّ به ، فلما جاءه قال له عمر : لأي شيء قلت لي هذا ؟ قال الرجل : إن أمّنتني حدثتك ، قال : أنت آمن ، قال : رأيتك بالمدينة تذيل إزارك ، وترخي شعرك ، وتعصف ريحك ، فكنت أعجب كيف يدعك الله في سكان أرضه ، فلما جاءت حالتك هذه ، رأيت علي من الحق تعزيتك وأداء حقك ، فقال له عمر : يا أخي إن كنت مقيماً معنا بأرضنا فتعاهدنا ، وإن خرجت ففي حفظ الله [3] .

يدل هذا على أن عمر كان يصغي للنصيحة ، ويذعن للحق ، ولو كان فيه غض من شأنه ، وبالرغم من أنه كان حاد الطبع ، فإنه كان سريع العودة الى صفاء النفس ، قال اسماعيل بن أبي حكيم : غضب عمر بن عبد العزيز يوماً ، فاشتد غضبه ـ وكان فيه حدة ـ وعبد الملك ابنه حاضر ، فلما سكن غضبه قال له ابنه هذا : يا أمير المؤمنين ، في قَدْر نعمة الله عندك وموضعك الذي وضعك الله به ، وما ولاك من أمر عباده أن يبلغ بك الغضب ما أرى ؟

قال : كيف قلت ؟ فأعاد عليه كلامه ، فقال له عمر : أما تغضب أنت ياعبد الملك ؟ قال : مايغني عني جوفي إن لم أردَّ الغضب فيه ، حتى لايظهر منه شيء [4] .

---

(١) البداية والنهاية : المكان السابق

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٣

(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم : ص ٢٥ وما بعدها .

(٤) الخراج لأبي يوسف : ص ١٧ .

٩ ـ مقومات تكوينه التربوي :

تأثر عمر بن عبد العزيز بعاملين أساسيين في تكوينه [١] :

الأول : تربيته في كنف عمه عبد الملك (٦٥ ـ ٨٦هـ) الخليفة الأموي القوي أحد كبار فقهاء المدينة ، فحينما مات أبوه عبد العزيز ، أخذه عبد الملك الى دمشق ، وضمه الى أولاده ، وقدمه على كثير منهم ، وزوجه بابنته فاطمة ، ودربه على فهم شؤون الحياة ، ونمّى معرفته ، ووسع دائرة ثقافته ، وتعهده بنوع خاص من الرعاية والتهذيب .

الثاني : تربيته على أيدي كبار فقهاء المدينة : فقد بعثه أبوه من مصر الى المدينة ليتأدب بها ، فكان يتردد الى عبيدالله بن عبد الله بن مسعود يسمع منه ، وإلى غيره مثل سعيد بن المسيب سيد التابعين ، حتى إن عمر بعد توليه المدينة ، كان يجله ويقدره ، فأرسل يوماً رسولاً الى سعيد بن المسيب يسأله عن مسألة ، وكان سعيد لا يأتي أميراً ولا خليفة ، فأخطأ الرسول فقال له : الأمير يدعوك ، فأخذ نعليه، وقام إليه من وقته، فلما رآه عمر قال له: عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك ، حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا ، فإنا لم نرسله ليدعُوَك ، ولكنه أخطأ ، إنما أرسلناه ليسألك .

ظهرت آثار هذه التربية القوية في أخلاق عمر وتدينه ، والتزامه سيرة جده عمر بن الخطاب ، فامتاز بصلابة الشخصية ، والجدّية في معالجة الأمور ، والحزم وإمعان الفكر وإدامة النظر في القرآن . والإرادة القوية والترفع عن الهزل والمزاح ، بدليل ما غصت به مجالسه الاجتماعية من مناقشات علمية، وجدل قوي، وتوجيه نحو معالي الأمور ، منها أنه يوماً جمع أصحابه بالسويداء [٢] ثم أوصاهم ، فقال :

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٣ ، فوات الوفيات : ٢/ ٢٠٧ ، سيرة ابن عبد الحكم : ص ٢٦ ـ ٢٩ ، ١١٨ ، ١٢٢ ـ ١٢٤ ، ١٣٤ .

(٢) وهي إحدى قطائع عمر ومزارعه .

«إياي والمزاح ، فإنه يبعث الضغن ، ويُنبت الغِلّ ، تحدثوا بكتاب الله ، وتجالسوا به ، وتسايروا عليه ، فإذا مللتم فحديثٌ من حديث الرجال حسن جميل» .

وكان يعظم مسجد الرسول ﷺ في المدينة ، فيطيل المكث أو الاعتكاف فيه ، ويكثر الصلاة ، حتى إنه حينما توفي ابن عمه الخليفة سليمان ، وكانت الوصية بالخلافة من بعده له ، خرج رجاء بن حَيْوة يلتمسه في مسجد دابق فوجده ، وأخبره بوفاة سليمان ، فقام حتى جلس على المنبر ، فنعى للناس سليمان ، وفتح الكتاب ، فإذا فيه استخلاف عمر ، ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر ، فأنكر هشام ذلك ، ثم قال : سمعنا وأطعنا . وطلب بعد استخلافه من سالم بن عبد الله أن يكتب إليه سيرة عمر بن الخطاب ، ليسير على منهاجها ، ويلتزم طريقها ، معلناً أن استخلافه لم يكن برغبة منه ولا مشاورة له ، فقال في كتابه الى سالم : «أما بعد : فقد ابتُليتُ بما ابتُليتُ به من أمر هذه الأمة من غير مشاورة مني ، ولا إرادة ، يعلم الله ذلك ، فإذا أتاك كتابي فاكتب إليَّ بسيرة عمر بن الخطاب في أهل القبلة وأهل العهد ، فإني سائر بسيرته إن اللهُ أعانني على ذلك ، والسلام»

فكتب إليه سالم : «تسألني أن أكتب لك بسيرة عمر وقضائه في أهل القبلة وأهل العهود ، وتزعم أنك سائر بسيرته ، إن الله أعانك على ذلك .

وإنك لست في زمان عمر ، ولا في مثل رجال عمر . فأما أهل العراق ، فليكونوا منك بمكان من لاغنىً بك عنهم ، ولا مفقرة إليهم ، ولا يمنعك من نزع عامل أن تنزعه أن تقول : لا أجد من يكفيني مثل عمله ، فإنك إذا كنت تنزع لله وتستعمل لله ، أتاح الله لك أعواناً وأتاك بهم ، فإنما قدرُ عون الله للعباد على قدر النيات ، فمن تمت نيته تم عون الله له ، ومن قصرت نيته قصر عون الله له ، والله المستعان ، والسلام» .

وصمم عمر قبل استخلافه على التزام هدي الراشدين وفعل الخير ، وكان يعلن رأيه بصراحة قوية أمام الخليفة سليمان ، ففي مشهد حافل صبت الهدايا على

سليمان في آنية الذهب ، فكلما مر بعمر صنف منها ، قال له سليمان : كيف ترى هذا يا ابن عبد العزيز ؟ قال : «يا أمير المؤمنين ، هو متاع الحياة الدنيا» قال سليمان : «فآلله لو وَلِيته ، ماأنت صانع فيه ؟»

قال : «اللهم ، أقسِمُه حتى لايبقى منه شيء» .

وفي مجالات النقد البناء ورفض سيرة الظالمين ، رأينا عمر وهو وال على المدينة يطلب من الخليفة الوليد أن يستعفيه من مرور الحجاج عليه بالمدينة ، فكتب الخليفة الى الحجاج :

«إن عمر بن عبد العزيز كتب إليّ يستعفيني من ممرّك عليه ، فلا عليك ألا تمر بمن كرهك» فتنحى الحجاج عن المدينة ، ولما بلغه موت الحجاج خر ساجداً لله تعالى .

ولما أتى نعي الحجاج بن يوسف ، ودخل الناس على الوليد يعزونه ، فلم يُعزّه عمر ، فاستاء الوليد من ذلك ، وقال : مامنعك ياعمر أن تعزيني بالحجاج ، كما عزاني الناس ؟

فقال : «ياأمير المؤمنين ، إنما الحجاج منا أهلَ البيت ، فنحن نعزّى به ، ولا نعزي ، قال : صدقت» .

١٠ ـ وفاته وسببها ومدة خلافته ووصيته لأولاده ورثاؤه :

من المؤسف حقاً أن تستبد الأطماع البشرية بالنفوس ، وتعصف بها الأهواء عن جادة الحق وسيرة العدل ، وتفترس الحظوظ والمصالح الشخصية بأنيابها الحادة الدموية كبد المصالح العامة ، وتقضي على ميزان العدالة ، وتغتال مثل عمر الذي ملأ الأرض الإسلامية عدلاً كما ملئت جوراً .

فقد كانت وفاته مثلاً مثيراً للأشجان والأحزان، وتحولاً خطيراً في مجرى مسيرة التاريخ، فتوفي رحمه الله في يوم الجمعة في دير سِمْعان جانب معرة النعمان لعشر بقين من شهر رجب سنة إحدى ومائة، وعمره أربعون سنة وأشهر[1]. ولكن لم تكن الوفاة عادية، وإنما بسبب الغدر والخيانة، نال بها عمر مرتبة الشهداء الخالدين المقربين عند الله تعالى، الذين لم تطوهم صحف التاريخ، وظل أثره ماثلاً في الأذهان إلى أبد الدهر.

سقاه بنو أمية السم ، لما شدد عليهم ، وانتزع كثيراً مما في أيديهم ، مما غصبوه ، وصلى عليه يزيد بن عبد الملك أي يزيد الثاني الذي صار خليفة بعد عمر (١٠١ ـ ١٠٥هـ/ ٧٢٠ ـ ٧٢٤م) بحسب وصية أخيه سليمان، فقام بتهديم كل ما أصلحه سلفه عمر بن عبد العزيز .

وكانت خلافة عمر سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام أو أربعة عشر يوماً ، وكان قد نقش على خاتمه «عمر يؤ من بالله» وكان حكماً مقسطاً ، وإماماً عادلاً ورعاً ديِّناً ، لاتأخذه في الله لومة لائم .

وبالرغم من إحساس عمر بتأثير السم الزعاف ، فإنه رفض التداوي ، فقيل له : ألا تتداوى ؟ فقال : لقد علمت الساعة التي سُقيت فيها ، ولو كان شفائي أن أمسح شحمة أذني ، أو أوتى بطِيب ، فأرفعه الى أنفي ما فعلت .

وقد دس السم مولى له في طعام أو شراب ، وأعطي على ذلك ألف دينار ، فمرض بسبب ذلك ، فأخبر أنه مسموم . وقد استدعى مولاه الذي سقاه السم ، فقال له : ويحك ! ماحملك على ماصنعت ؟ فقال : ألف دينار أعطيتها ، فقال : هاتها ، فأحضرها ، فوضعها في بيت المال ، ثم قال له : اذهب حيث لايراك أحد ، فتهلك .

---

(١) فوات الوفيات : ٢/٢٠٨ ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦ ، البداية والنهاية : ٩/١٩٢ ، ٢٠٩ ـ ٢١٢ ، ابن عبد الحكم : ص ١١٢ ـ ١١٨

والموت بالسم هو الراجح لدي لكثرة الروايات في بيانه، لكن قال ابن كثير في البداية والنهاية : «كان سبب وفاته السل» وهذا أيضاً دليل على سوء التغذية وعدم الاهتمام بشأن نفسه ، وانصرافه لمصالح الرعية ، وقضايا الأمة ، فهو قد أهمل نفسه ، كما أنه أهمل التحرز لنفسه إذا كان سبب الوفاة هو ماسقوه من السم ، وأهمل التداوي ومعالجة الأطباء .

فقد بلغ ملك الروم أن عمر بن عبد العزيز سُقي السم ، فأرسل إليه رأس الأساقفة ، وكتب إليه يعلمه حاله عنده ، ومايوجبه من الحق لمثله من أهل الخير وطاعة الله :

إنه قد بلغني أنك سُقيت ، وقد بعثت إليك رأس الأساقفة وأطبّهم ، ليعالجك مما بك .

فقدم عليه ، فقال له عمر : انظر إليَّ ، فجَسَّه ، فقال : سُقيت يا أمير المؤمنين ، قال عمر : فماذا عندك ؟ قال : أسقيك حتى أستخرج ذلك من عروقك .

فقال له عمر : لو كان روح الحياة بيدك مامكَّنتك من ذلك ، ارجع الى صاحبك ، لاحاجة لي في علاجك .

وقد يبدو هذا الموقف غريباً مستهجناً ، إلا أن غالبية فقهائنا لايوجبون على المريض التداوي ، وإنما الأمر متروك له على سبيل الإباحة والاختيار ، قال الإمام النووي : إن ترك التداوي توكلاً ، فهو فضيلة [1] ، وقال الحنابلة [2] : ترك الدواء أفضل ، لأنه أقرب الى التوكل ، ولا يجب التداوي ، ولو ظن نفعه ، لكن يجوز اتفاقاً .

---

(١) المجموع : ٥/ ٩٥

(٢) كشاف القناع : ٢/ ٨٥

وسبب إيثاره الموت مالقيه من عنت ومعارضة وطمع الطامعين من بني أمية ، حتى إنه طلب عبدالله بن أبي زكريا ليدعو عليه بالموت ، فقال له : ادع الله أن يميتني ، فدعا عليه بعد أن استحلفه على أن يفعل له مايشاء ، ثم دعا على نفسه قائلاً : اللهم لاتبقني بعده ، ودعا أيضاً لصبي صغير يحبه عمر ، فمات عمر ومات ابن أبي زكريا ، ومات الصبي .

واختار عمر نفسه الرفيق الأعلى ودعا على نفسه ، ففي يوم جمعة كان يدخل عليه بنوه ، فيستقرئهم القرآن بعد الجمعة ، فدخلوا عليه كما كانوا يدخلون ، فاستقرأهم ، فقرأ أولهم :

﴿طسّمّ. تلك آيات الكتاب المبين، لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين. إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية، فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ .

فقال عمر : لقد عزاني الله على لسان ابني هذا ، وتجلى عنه بعض غمه ، وقال : اللهم إني قد مللتهم وملّوني ، فأرحني منهم وأرحهم مني ، فما عاد الى المنبر ثانية حتى قبضه الله عز وجل .

فإن صح هذا الخبر ، مع معارضته الوصايا النبوية ، فإنه يصور لنا مدى الضيق الشديد بالحياة والمعاناة والمتاعب التي لاقاها عمر ، كما هو الشأن الحاصل مع الأنبياء وكبار المصلحين الذين يجدون الصعاب والأهوال أمام دعوتهم الإصلاحية . ولكني مع ذلك أستبعد مخالفة عمر سنة النبي ﷺ الذي قال : «لاتَدْعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يُسأَلُ فيها عَطَاءٌ ، فيستجيب لكم» [1] فهذا نهي صريح عن الدعاء على النفس أو الأولاد أو المال بشيء من الضرر ، لئلا يصادف هذا الدعاء القبول .

---

(١) رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه

ومن عجائب عمر : أنه قد اشترى موضع قبره بعشرين ديناراً ، وقيل له : لو أتيتَ المدينة فإن مُتَّ دفنتَ في موضع القبر الرابع مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقال : «والله لأن يعذبني الله بكل عذاب إلا النار أحبّ إلي من أن يعلم الله مني أني أراني لذلك الموضع أهلاً» .

ومن طرائف وأمارات كونه مات شهيداً : أن رجلاً من الشام كان قد استشهد ، وكان يأتي جاره في المنام في كل ليلة جمعة ، فيحدثه ويأنس به ، فافتقده ليلة ، فأصبح حزيناً ، فلما رآه سأله ما أخّره عنه في إبّانه الذي كان يأتي فيه ؟ فقال :

«إنا معشرَ الشهداء أمرنا أن نشهد جنازة عمر بن عبد العزيز» فأرخ الرائي ذلك اليوم ، فجاء الخبر أنه مات عمر في ذلك اليوم ، رحمة الله عليه ورضوانه. ودفن في دير سِمْعان بدمشق في وسط من البساتين والحدائق المشجرة ، لعشر بقين من رجب سنة إحدى ومائة (١٠١هـ) . قال بعض الشعراء يرثي عمر بن عبد العزيز : [١]

قد قلت إذ أودعوه الترب وانصرفوا ... لايبْعدن قِوامُ العدلِ والدِّين
قد غيَّبوا في ضريح الترب منفرداً ... بدَيْر سمعانَ [٢] قِسْطاس الموازين
من لم يكن همُّه عيناً يفجّرها ... ولا النخيل ولا ركض البراذين

يلاحظ أن في البيت الثاني تشبيه عمر رضي الله لعدله بالميزان .
ورثاه كثيّر عزة قائلاً :

سقى ربنا من دير سمعان حفرة ... بها عمر الخيرات ، رهناً دفينها
صوابحَ من مُزْنٍ ثِقال غوادياً ... دوالحَ دُهْماً ماخضاتٍ دُجونها

---

(١) هذه الأبيات الثلاثة ومابعدها في رثاء عمر أوردها صاحب العقد الفريد (٣/ ٢٨٥) وياقوت الحموي في معجم البلدان (٢/ ٥١٧) طبع بيروت)

(٢) دير سمعان (بكسر السين وفتحها) بنواحي دمشق في موضع نزه وبساتين ، وعنده قبره عمر بن عبد العزيز (معجم البلدان : ٢/ ٥١٧) وهو الآن في قلب دمشق بشارع خالد بن الوليد .

ورثاه الشريف الرضي الموسوي بأبيات أخرى منها [1] .

دير سمعـان لاعَدَتـك الغوادي   خـير ميت من آل مروان ميتك

وقال فيه أبو فراس بن أبي الفرج البزاعـي ، وقـد مرَّ به ، فرآه خرابـاً ، فغمَّه :

يادير سمعـان ، قل لي : أين سمعان   وأين بانـوك خبِّرنـي متـى بانوا
وأين سكانـك اليوم الألى سلفوا   قد أصبحوا ، وهـمُ في التـرب سكان
أصبحـت قفـراً خراباً مثـل ماخربوا   بالموت ، ثم انقضى عمـرو وعمران
وقفـتُ أسألـه جهـلاً ليخبرني   هيهـات من صامـت بالنطـق تبيان
أجابنـي بلسـان الحـال : إنهم   كانـوا ، ويكفيك قولي : إنهم كانوا

وصيته لأولاده :

حينما أحس عمر بدنـو أجلـه ، استدعـى أولاده ، فودعهـم وعزاهـم ، وأوصاهم بوصية خالدة تضمنتها محاورته مع مَسْلَمة بن عبد الملك الذي قال له [2] : ياأمير المؤمنين إنك قد أقفرت أفواه ولدك من هذا المال ، فلو أوصيت بهم إلي أو إلى نُظَرائي من قومك ، فكفَوْك مـؤونتهم ، فلما سمع مقالته : قال : أجلسونـي ، فأجلسوه ، فقال : قد سمعت مقالتك يامَسْلَمَة ، أما قولك ، إني قد أقفرت أفواه ولدي من هذا المال ، فوالله ماظلمتهم حقاً هو لهـم ، ولـم أكن لأعطيهـم شيئاً لغيرهم .

---

(١) الأبيات ثلاثة هي :

ياأبـن عبـد العـزيز لو بكت العيـ   ـن فتـى من أمية لبكيتك
أنـت أنقذتنـا من السـب والشتـ   ـم فلـو أمكن الجـزا لجزيتك
دير سمعـان لا عدتـك الغوادي   خـير ميت من آل مروان ميتك

(٢) ابن عبد الحكم : ص ١١٥ ، البداية والنهاية : ٩/ ٢١٠ ، حلية الأولياء : ٥/ ٣٣٣ .

وأما ما قلت في الوصية، فإني وصيي فيهم: ﴿الله الذي نزَّل الكتاب، وهو يتولى الصالحين﴾ .

وإنما ولد عمر بين أحد رجلين : إما رجل صالح فسيغنيه الله ، وإما غير ذلك ، فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله ، ادعُ لي بَنِيَّ [1] فأتوه ، فلما رآهم ترقرقت عيناه ، وقال : بنفسي فتية تركتهم عالة [2] لاشيء لهم ، وبكى .

يابَنِيَّ ، إني قد تركت لكم خيراً كثيراً ، لاتمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقاً .

يابني ، إني قد مثلت بين أمرين ، إما أن تستغنوا وأدخل النار ، أو تفتقروا إلى آخر يوم الأبد ، وأدخل الجنة ، فأرى أن تفتقروا ، إلى ذلك أحبُّ إليَّ ، قوموا عصمكم الله ، قوموا رزقكم الله ، وأحسن الخلافة عليكم .

علق المؤرخون على تفاؤل عمر في الأثر الطيب الذي خلفه في أولاده فقالوا: لقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرساً في سبيل الله ، وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك ـ مع كثرة ماترك لهم من الأموال ـ يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز ؛ لأن عمر وكل ولده الى الله عز وجل ، وسليمان وغيره إنما يكلون أولادهم إلى مايدَعون لهم ، فيضيعون وتذهب أموالهم في شهوات أولادهم .

إن هذه النفحة الإيمانية الصادقة المحققة الأثر في الواقع والتي صدرت من أعماق قلب عمر ، وجرت على لسانه في وصيته ، لتصلح دليلاً قاطعاً على صدق ماجاء به القرآن الكريم ، وتربى على مائدته ، وفي هديه ، المؤمنون الصالحون ، إيماناً منهم بأن ﴿العاقبة للمتقين﴾ .

---

(١) وكان أولاده اثني عشر ذكراً

(٢) أي فقراء

ألا تتجدد آثار هذا الإيمان في نفوس الآباء في كل عصر وزمان وجيل ، فيستقر في خَلَدَهم وإيمانهم أن ماعند الله خير وأبقى ، وأن ثرواتهم الكبرى تتبدد سريعاً على أيدي الذرية والورثة ، ولايبارك الله لهم فيها ، فينفقونها ذات اليمين وذات الشمال ، لأنهم لم يتعبوا في جنيها ، ولم يُحسُّوا بما يبذل في كسبها من متاعب وعناء ، وتكون العاقبة أن يحاسب الآباء عليها ، ويستمتع بها الأبناء إلى حين من الزمان فقط .

وكان عمر قد ربى أولاده على التعفف ، فقد بلغه أن ابناً له اشترى فصاً بألف درهم فتختم به ، فكتب اليه عمر : عزيمة مني إليك لما بعت الفص الذي اشتريت بألف درهم وتصدقت بثمنه ، واشتريت فصاً بدرهم واحد ، ونقشت عليه : رحم الله امرءاً عرف قدره ، والسلام [1].

وصيته للخليفة بعده :

أراد الله سبحانه لعمر الخير في البعد عن سيرة بني أمية في الاستخلاف ، وكتابة العهد بالخلافة لمن بعده ، إذ كان سليمان بن عبد الملك قد كتب العهد بالخلافة لعمر بن عبد العزيز ، ثم ليزيد بن عبد الملك ليكون ولي الأمر من بعد عمر بن عبد العزيز[2] . لكن طلب بعض الناس إلى عمر أن يكتب إلى يزيد بن عبد الملك كتاباً يوصيه ويخوفه ، وألح عليه رجاء بن حَيْوة في هذا الأمر فقال عمر : والله إني لأعلم أنه من ولد مروان ، فقال رجاء : يكون ـ أي الكتاب ـ «حجة عليه ، وعذراً لك عند الله» فأمر عمر أن يكتب إليه [3]:

---

(١) حلية الأولياء : ٥/ ٣٠٦

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ٢١٩

(٣) حلية الأولياء : ٥/ ٢٧٤ ومابعدها ، ابن عبد الحكم : ص ١٢١ ومابعدها ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٤٥ ، أخبار عمر للآجري : ص ٨٤

أما بعد : يايزيد ، فاتّق الصرعة عند الغفلة ، فلا تقال العثرة ، ولا تقدر على الرجعة ، وتترك ماتترك لمن لايحمدك ، وتنقلب الى من لايعذرك ، والسلام .

وكتب عمر كتاباً آخر الى ولي العهد من بعده :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى يزيد بن عبد الملك .

سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد :

فإني كتبت وأنا دَنِف [1] من وجعي ، وقد علمت أني مسؤول عما وليت ، يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة ، ولست أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً، يقول فيما يقول: ﴿فلنقصن عليهم بعلم، وما كنا غائبين﴾، فإن يرض عني الرحيم ، فقد أفلحت ، ونجوت من الهوان الطويل ، وإن سخط علي ، فياويح نفسي إلى ما أصير ، أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يجيرني من النار برحمته ، وأن يمن علي برضوانه والجنة .

فعليك بتقوى الله ، والرعيَّة الرعيةَ ، فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلاً حتى تلحق باللطيف الخبير ، والسلام» .

بين البيعة وولاية العهد :

المعيب في الاستخلاف هو جعل الخلافة حكراً على الأقارب وورثة الخليفة السابق ، لكن الفقهاء المعاصرين لبني أمية ومن بعدهم قالوا[2] :

---

(١) أي مثقل من مرضه .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي : ص ٤ـ٥، ٨، الأحكام السلطانية لأبي يعلى : ص ٧ .

تنعقد الإمامة بأحد أمور ثلاثة : البيعة أو اختيار أهل الحل والعقد ، وولاية العهد ، والغلبة والقهر .

وتتطلب ولاية العهد انضمام البيعة للخليفة المرشح المعهود له في رأي علماء البصرة ، ولم يتطلبها آخرون ، وقد اتفق الفقهاء على صحته لأمرين عمل المسلمون بهما ولم ينكرهما أحد :

أحدهما ـ أن أبا بكر رضي الله عنه عهد بها الى عمر رضي الله عنه ، فأثبت المسلمون إمامته بعهده .

والثاني ـ أن عمر رضي الله عنه عهد بها إلى أهل الشورى ، فقبلت الجماعة دخولهم فيها ، وهم أعيان العصر ، اعتقاداً لصحة العهد بها ، وخرج باقي الصحابة منها . وقال علي للعباس رضوان الله عليهما حين عاتبه على الدخول في الشورى : «كان أمراً عظيماً من أمور الإسلام لم أر لنفسي الخروج منه» فصار العهد بها إجماعاً في انعقاد الإمامة .

غير أن ولاية العهد من هذين الشيخين أبي بكر وعمر لم تكن وراثية أي في ورثتهما، على النمط الأموي، وإنما كانت على وفق ضوابط دقيقة تحقق المصلحة العامة للمسلمين ، فإذا أراد الإمام أن يعهد بالإمامة ، فعليه أن يجهد رأيه في الأحق بها والأقوم بشروطها ، ثم ينضم إليها رضا أهل الاختيار لبيعته ، فلا تلزم ولاية العهد الأمة إلا برضاهم ؛ لأنها حق يتعلق بهم ، فلم تلزمهم إلا برضا أهل الاختيار منهم . وصحح الماوردي انعقاد البيعة لولي العهد ، دون اعتبار رضا أهل الاختيار ؛ لأن بيعة عمر رضي الله عنه لم تتوقف على رضا الصحابة ، ولأن الإمام أحق بها ، فكان اختياره فيها أمضى .

وهذا رأي غريب ، إذ إن ولاية الإمام القائم تنتهي بموته ، وعمر رضي الله عنه جعل الإمامة محصورة في أحد الستة ، مع تحديده باختيار جماعة الشورى ، وانضمام بيعة أعيان الأمة ، وقيام أهل الشورى باستشارة رؤساء الناس في مدى

ثلاثة أيام ، فكان الناس يجتمعون في تلك الأيام الى عبد الرحمن بن عوف يشاورونه ويناجونه ، فلا يخلو به رجل ذو رأي ، فيعدل بعثمان أحداً [1].

أما ولاية العهد للوارث وانفراد الإمام بعقد البيعة للولد أو الوالد ، ففيه ثلاثة مذاهب [2]: أحدها ـ لايجوز أن ينفرد بعقد البيعة لـولد ولا لوالد حتى يشاور فيه أهل الاختيار ، فيرونه أهلاً لها .

والمذهب الثاني ـ يجوز أن ينفرد بعقدها لولد ووالد ؛ لأنه أمير الأمة نافـذ الأمر لهم وعليهم .

والمذهب الثالث ـ أنه يجوز أن ينفرد بعقد البيعة لوالده ، ولا يجوز أن ينفرد بها لولده ؛ لأن الطبع يبعث على الميل للولد أكثر مما يبعث على الميل للوالد .

أما عقد العهد للأخ ومن قاربه من عصبته ومناسبيه ، فكعقدهـا للأباعـد الأجانب في جواز تفرده بها .

ومن معجزات البنوة أنه صلى الله عليه وسلم امتدح أنماط الخلافة الراشدية ، وذم النمط الوراثي . فقال : «الخلافة بالمدينة والمُلْك بـالشام» [3] وقـال أيضـاً : «الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون سنة ، ثم مُلْك بعد ذلك» [4]

وإذا أردنا الإنصاف والاعتبار بالتـاريخ الواقـع ، فقـد أدت ولاية العهـد للورثة ، سواء لواحد أو أكثر ، الى مساوىء كثـيرة ومفاسـد عظيمـة ، منهـا أن يتعجل بعض الورثة الخلافة ، فيقتل الأخ أخاه ، وأهم من ذلك كله إهمال رأي الأمة حقيقة ، وإن حرص بعضهم على البيعة شكلاً . ومنها ميل الخليفـة بنحـو واضح لأولاده وأقاربه ، وقل أن نجد منهم الترفع عن هذا الميل ، ومن هؤ لاء القلة

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ١٥٣

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي : ص ٨ـ٩

(٣) رواه البخاري في التاريخ والحاكم عن أبي هريرة ، وهو حديث صحيح .

(٤) رواه أحمد والترمذي وأبو يعلى وابن حبان عن سفينة ، وهو حديث صحيح أيضاً .

عمر بن عبد العزيز الذي التزم منهج الراشدين ، ومن أمثلة هذا الالتزام ماحدث بينه وبين الوليد بن هشام ، وبينه وبين مسلمة بن عبد الملك .

ماحدث بين عمر والوليد بن هشام :

كتب الوليد بن هشام ـ وكان مرائياً ـ لعمر ، خديعة منه له ، وتزيناً بما هو ليس عليه ، ليحظى بأمر ما بعد عمر كالخلافة ونحوها :

إني قدَّرت نفقتي لشهر ، فوجدتها كذا وكذا درهماً ، ورزقي يزيد على ما أحتاج إليه ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يحطَّ فضل ذلك .

فقال عمر : أراد الوليد أن يتزين عندنا بما لا أظنه عليه ، ولو كنت عازلاً أحداً على ظنٍ لعزلته ، ثم أمر بحطِّ رزقه إلى الذي سأله ، ثم أمر بالكتاب إلى يزيد بن عبد الملك وهو ولي عهده :

إن الوليد بن هشام كتب إلي كتاباً أكثر ظني أنه تزيَّن بما ليس هو عليه ، ولو أمضيت شيئاً على ظني ماعمل لي أبداً ، ولكني آخذ بالظاهر وعند الله علم الغيوب ، فأنا أقسم عليك إن حدث بي حادث وأفضى هذا الأمر إليك ، فسألك أن تردّ إليه رزقه ، وذكر أني نقصته ، فلا يظفر منك بهذا أبداً ، فإنما خادع به اللهَ ، واللهُ خادعه .

فلما مات عمر واستُخلف يزيد كتب إليه الوليد : إن عمر نقصني وظلمني ، فغضب يزيد وبعث إليه ، فعزله وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها ، فلم يلِ له عملاً حتى هلك [1] .

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم : ص ١٥٣

ماحدث بينه وبين مسلمة بن عبد الملك :

دخل مَسْلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في مرضه الـذي مات فيه ، فأوصاه عمر أن يحضر موته ، وأن يلي غسله وتكفينـه ، وأن يمشي معـه إلى قبره ، وأن يكون ممن يلي إدخاله في لحده ، ثم نظر إليه وقال : انظر يامسلمة بأي منزل تتركني ، وعلى أي حال أسلَمْتَني إليه الدنيا ، فقال له مسلمة :

فأوصِ ياأمير المؤمنين ، قال : مالي من مالٍ فأوصي فيه . قال مسلمة : هذه مائة ألف دينار ، فأوص فيها بما أحببت . قال : أوَ خير من ذلك يامسلمة ؟ أن تردها من حيث أخذتها . قال مسلمة : جزاك الله عنا خيراً يا أمير المؤمنين ، والله لقد ألَنْتَ لنا قلوباً قاسية ، وجعلت لنا ذكراً في الصالحين .

فكل من الوليد ومسلمة أراد شيئاً ، وزاد مسلمة أن عرض المال على عمـر ليوصي فيه ولكن موازين عمر الدقيقة أبت عليه أن يتأثر بأقاربه ، وأن يترفع عن إغراءات المال ، وشهرة الدنيا وتحقيق السمعة عند النـاس ، فهـو إنمـا يخشى الله وحده ، لذلك لم يخفه أحد من إلحاق الظلم به ، وإنما خافوا مَنْ بعدَه ، كما تدل قصة هرب يزيد بن المهلب من السجن .

هرب يزيد بن المهلب الذي كان والي العراق من السجن :

في أثناء مرض عمر بن عبد العزيز هرب يزيد بن المهلب من السجن حين بلغه مرض عمر [1]، فواعد غلمانه يلقونه بالخيل في بعض الأماكن ، وقيل : بإبل له ، ثم نزل من محبسه ومعه جماعة وامرأته عاتكة بنت الفرات العامرية ، فلما جاء غلمانه ركب رواحله وسار ، وكتب الى عمر بن عبد العزيز :

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ١٩١ ومابعدها

إني والله ماخرجت من سجنك إلا حين بلغني مرضك ، ولو رجوت حياتك ماخرجت ، ولكني خشيت من يزيد بن عبد الملك ، فإنه يتوعدني بالقتل .

وكان يزيد يقول : لئن وليت لأقطعن من يزيد بن المهلب طائفة ، وذلك أنه لما ولي العراق عاقب أصهاره آل أبي عقيل ، وهم بيت الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكان يزيد بن عبد الملك مزوجاً ببنت محمد بن يوسف ، وله منها ابنه الوليد بن يزيد الفاسق المشهور .

ولما بلغ عمر بن عبد العزيز أن يزيد بن المهلب هرب من السجن قال : «اللهم إن كان يريد بهذه الأمة سوءاً ، فاكفهم شره ، واردد كيده في نحره» .

لحظات الوداع الأخيرة من حياة عمر :

تدل اللحظات الأخيرة من حياة الإنسان دلالات مؤثرة ذات شأن في الحكم الظاهري على الأشخاص ، وعن مدى قَدْر الشخص وقربه من ربه ، فلما احتضر عمر جعل يقول : «اللهم رضني بقضائك ، وبارك لي في قَدَرك ، حتى لا أحبَّ لما عجلتَ تأخيراً ، ولا لما أخرتَ تعجيلاً» فلا زال يقول ذلك حتى مات رحمه الله ، وكان يقول : «لقد أصبحت ومالي في الأمور هوى إلا في مواضع قضاء الله فيها» [1] .

وقالت فاطمة بنت عبد الملك : كنت أسمع عمر رحمه الله في مرضه الذي مات فيه يقول [2] :

---

(١) المرجع السابق : ٩/ ٢١٥

(٢) أخبار عمر للآجري : ص ٨٣ ، سيرة عمر لابن عبد الحكم : ص ١١٦ ، البداية والنهاية : ٩/ ٢١٠ ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٤٥ .

«اللهم أخف عليهم موتي ، ولو ساعة من نهار» .

وقالت فاطمة له يوماً : ياأمير المؤمنين ، ألا أخرج عنك عسى أن تغفى شيئاً ، فإنك لم تنم ، فخرجت عنه الى بيت غير البيت الذي هو فيه ، فسمعته يقول ، كما سمعه مسلمة بن عبد الملك والخَصِّي اللذان كانا عند وفاته وخرجا : ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين﴾ يرددها مراراً ، ثم خَفَت الصوت ، فدخلوا عليه فوجدوه ميتاً مغمَّضاً مسجًّى ، قد أقبل بوجهه على القبلة ، ووضع إحدى يديه على فيه ، والأخرى على عينيه ، رحمة الله عليه .

وكان خروجهم من عنده بناء على طلبه ، لمشاهدته الملائكة ـ ملائكة الرحمة والأنس ، فقال : قوموا عني ، فإني أرى خلقاً ما يزدادون إلا كثرة ، ما هم بجن ولا إنس .

نعي عمر في المنام وتشييع الشهداء له :

ذكرت سابقاً في وفاة عمر لإثبات بلوغه درجة الشهداء أنه كان رجل من أهل الشام قد استشهد ، وكان يأتي جاره في المنام في كل ليلة جمعة ، فيحدثه ويأنس به ، فافتقده ليلة فأصبح حزيناً ، فلما رآه ، سأله ما أخّره عنه في إبّانه الذي كان يأتي فيه ؟ فقال : إنا معشر الشهداء ، أمرنا أن نشهد جنازة عمر بن عبد العزيز . فأرّخ ذلك اليوم ، فجاءهم الخبر أنه مات في ذلك اليوم ، رحمة الله عليه ورضوانه [1]

وفي مشهد آخر : رأت امرأة بالكوفة ذات ليلة نساء الجن تنعى عمر ، وتطلب الواحدة منهن البكاء عليه ، وتقول الأخريات : وا أمير المؤمنيناه ، وا أمير

(١) ابن عبد الحكم : ص ١١٧

المؤمنيناه [1]. هذه الرؤيا وغيرها وإن لم تكن دليلاً قاطعاً ؛ لأن الرؤيا المنامية لاتثبت بها الأحكام ، فإنه يستأنس بها في الدلالة على صلاح عمر رحمه الله .

وحدثت بعض المفاجآت عند دفن عمر ، قال أبو بكر بن أبي شيبة[2] : إن عمر بن عبد العزيز ، لما وضع عند قبره ، هبت ريح شديدة ، فسقطت صحيفة أحسن كتاب ، فإذا فيها :

«بسم الله الرحمن الرحيم . براءة من الله لعمر بن عبد العزيز من النار» فأدخلوها بين أكفانه ، ودفنوها معه .

رثاء عمر :

تواترت الأخبار في بكاء الناس وألمهم وحزنهم الشديد بفجيعة موت عمر ، وصدرت عنهم أقوال كثيرة في الثناء عليه ، وسيأتي أن الشعراء رثوه رثاء ينبض بالعواطف الحارة الجياشة التي تنم عن مدى الألم والحرقة بفقد هذا الخليفة العظيم . أما العلماء الكبار فقد خلدوا ذكره ، فلما جاء نعي عمر الى الحسن البصري قال : «إنا لله وإنا إليه راجعون ، ياصاحب كل خير» وقال أيضاً «مات خير الناس» وقال أيضاً : «إن كان مهدي فعمر بن عبد العزيز ، وإلا فلا مهدي إلا عيسى بن مريم» [3]

وقال محمد بن معبد [4] : أرسل عمر بن عبد العزيز بأسارى من أسارى الروم ، ففادى بهم أسارى من أسارى المسلمين ، فكنت إذا دخلت على ملك الروم ، فدخلتُ عليه عظماء الروم ، خرجت . فدخلت يوماً ، فإذا هو جالس في

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ١١٧

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ٢١٠ ومابعدها

(٣) تاريخ الخلفاء : ص ٢٤٥ ، حلية الأولياء : ٥/ ٢٥٧

(٤) حلية الأولياء : ٥/ ٢٩٠

الأرض مكتئباً حزيناً ، فقلت : ما شأن الملك ؟ قال : وما تدري ما حدث ؟! قلت : وما حدث ؟

قال : مات الرجل الصالح ، قلت : من ؟ قال : عمر بن عبد العزيز ، ثم قال ملك الروم : لأحسب أنه لو كان أحد يحيي الموتى بعد عيسى بن مريم عليه السلام ، لأحياهم عمر بن عبد العزيز .

ثم قال : لست أعجب من الراهب أغلق بابه ، ورفض الدنيا ، وترهب وتعبد ، ولكن أتعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه ، فرفضها ثم ترهب .

أما زوجته فاطمة بنت عبد الملك ، فقالت عندما ذهب الفقهاء بعد موت عمر ، معزين ومذكرين عظم المصيبة التي أصيب بها أهل الإسلام لموته ، وسائلين عن سيرة الخليفة الصالح ، قائلين : أخبرينا عنه ، فإن أعلم الناس بالرجل أهل بيته ، فقالت :

«والله ما كان بأكثركم صلاة ولا صياماً ، ولكن والله ، مارأيت عبداً لله أشد خوفاً لله من عمر ، كان رحمه الله قد فرّغ بدنه ونفسه للناس ، فكان يقعد لحوائجهم يومه ، فإذا أمسى ـ وعليه بقية من حوائجهم ـ وصله بليلته [1] .

قال أبو يوسف : وحدثني شيخ من أهل الشام ، قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز ، مكث شهرين ، مقبلاً على بثه وحزنه ، لما ابتلي به من أمور الناس ، ثم أخذ في النظر في أمورهم ، ورد المظالم الى أهلها ، حتى كان همّه بالناس أشد من همه بأمر نفسه ، فعمل بذلك حتى انقضى أجله ، رحمه الله تعالى [2] .

وفي كلمة أخرى للسيدة فاطمة بنت عبد الملك تصف مدى اهتمام الخليفة عمر بأمر الأمة ، وتصور إحساسه العالي المرهف بعظم المسؤولية عن محاويج الأمة

---

(١) الخراج لأبي يوسف : ص ١٦

(٢) المرجع والمكان السابق

وأفراد الرعية وفقراء الأقطار والأمصار كلها على حد سواء ، وتبين مدى حرصه على تحقيق العدل فيهم لدرجة عالية حتى في أخص حالات الخلوة مع زوجته .

ففي أمسية يوم[1] ، وقد فرغ الخليفة عمر من حوائج الناس ، دعا بمصباح قد كان يستصبح به من ماله ، ثم صلى ركعتين ، ثم أقعى واضعاً رأسه على يديه ، تسيل دموعه على خديه ، يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها ، وتخرج لها نفسه ، حتى برق الصبح ، فأصبح صائماً ، قالت فاطمة - فدنوت منه ، فقلت :

يا أمير المؤمنين ، أليس كان منك ماكان ؟

قال : أجل ، فعليك بشأنك وخليني وشأني .

قالت فاطمة : إني أرجو أن أتّعظ .

قال عمر : إذن أخبرك ، إني نظرت ، فوجدتني قد وَليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الفقير الجائع ، والغريب الضائع ، والأسير المقهور ، وذا المال القليل ، والعيال الكثير ، وأشباه ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض . فعلمت أن الله سائلي عنهم ، وأن رسول الله ﷺ حجيجي فيهم ، فخفت ألا يقبل الله مني معذرة فيهم ، ولا تقوم لي مع رسول الله ﷺ حجة ، فرحمت والله يافاطمة نفسي رحمة دمعت لها عيني ، ووَجع لها قلبي ، فأنا كلما ازددت لها ذكراً ، ازددت منها خوفاً ، فاتعظي إن شئت أو ذري .

وأردفت فاطمة القول عن عمر : ووالله ، إن كان عمر ليكون في المكان الذي ينتهي إليه سرور الرجل مع أهله ، فيذكر الشيء من أمر الله ، فيضطرب كما يضطرب العصفور قد وقع في الماء ، ثم يرتفع بكاؤه حتى أطرح اللحاف عني وعنه رحمة له .

ثم قالت : والله لوددت لو كان بيننا وبين هذه الإماوة بُعْدُ مابين المشرقين .

---

(١) الخراج : ص ١٧، ابن عبد الحكم : ص ١٧٠ ومابعدها

وإحساس عمر بن عبد العزيز بتبعة السؤال عن الأمة يوم القيامة هو من مورد جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان يقول :

«والله لو عثر بعير بشط الفرات ، لخشيت أن يسألني الله عنه يوم القيامة . . ألا تدرون أني مسؤول عن إصلاح الطريق ؟» «ووالله لو ضاع بعير بشط الفرات ، لخشيت أن يسألني الله عنه . ألا تدرون أني مسؤول عن تأمين الطريق ؟»

وهذا يصور مدى الفرق الكبير الواضح بين الديمقراطية الإسلامية وبين الديمقراطية الاجتماعية الحديثة ، ألا وهو أن أكبر ضمان وأوثقه للحكم الصالح في الديمقراطية الاسلامية بنوعيها السياسي والاجتماعي كان الوازع الديني ، واعتبار هذا الصلاح في الحكم عبادة [1].

ولم يكن هذا الإحساس بخطورة المسؤولية عن الأمة في العمرين مجرد صدفة ، وإنما كان مخططاً له . وبمنهج واضح لا غبار عليه من عمر الحفيد في اتباع سيرة عمر الجد ، بل والحرص على الاقتداء بسيرة الخلفاء الراشدين ، بدليل ماذكرته سابقاً أنه كتب الى سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب يطلب منه موافاته بسيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه [1]

تركة عمر الخليفة الزاهد العابد :

إن القدوة الحسنة بحق ، والرائد الأمين الذي نذر نفسه للأمة ، وإصلاح شؤونها ، ورفع المظالم عنها وردها لأهلها ، لا يتصور أن يكون آمراً بشيء أو ناهياً عن شيء ، ثم لا يأمر نفسه وينهى نفسه قبل غيره ، ليحصل التجاوب مع أمره ونهيه ، ولقد ألزم عمر نفسه بمنهج الاستقامة والسيرة الحسنة ، والزهد في الدنيا ، والإخلاص في العمل والقصد للآخرة ، وبُعْد النظرة والوعي في تسيير

(١) الديمقراطية الاسلامية للدكتور عثمان خليل : ص ٦٤

(١) أخبار أبي حفص عمر للآجري : ص ٧٠

امور الامة ، فلم تكن تركته أو ثروته كتركات وثروات الملوك والأمراء المترفين المنعمين ، وإنما كانت مثل تركة أبسط الناس ، وأفقر الفقراء على ممر العصور .

فقد حدّث شيخ ثقة من أهل الشام أنه لما مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قد استودع مولى له سَفَطاً [1] يكون عنده ، فجاؤوه ، فقالوا :

السفط الذي كان استودعك عمر ، فقال : مالكم فيه خير ، فأبوا حتى رفعوا ذلك الى يزيد بن عبد الملك ـ الخليفة بعده ـ فدعا بالسفط ، ودعا بني أمية ، وقال :

خَبْركم هذا قد وجدنا له سفطاً وديعة قد استودعها ، فدعا به فجاؤوا به ، ففتحوه ، فإذا فيه مقطعات من مسوح كان يلبسها بالليل [2] .

وهناك دليل آخر من حاسد حاقد على عمر ألا وهو عمر بن الوليد الذي كان له قصة مثيرة مدهشة مع عمر بعد موته ، فبالرغم من وجود المأتم العام في الأمة بعد وفاة عمر الخليفة ، أراد عمر بن الوليد أن يبدد تلك السمعة الطيبة ، ويطيح بذلك الصيت الذائع ، فلم يطمئن الى صدق عمر في تقشفه وزهده ، وفي ضمه أملاكه وأملاك زوجته فاطمة وجواهرها النادرة الى بيت مال المسلمين ، وداخله الشيطان بما تعوده من خبث الطوية وفساد السريرة وإلف النعمة أن لعمر الخليفة حياة أخرى مترعة بالنعيم والرفاهية ، غير الحياة العامة التي كان يبدو فيها بين الناس .

قص لنا رجاء بن حَيْوة فصول هذه القصة المثيرة [3] فقال : لما مات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وقام يزيد بن عبد الملك بعده في الخلافة ، أتاه عمر بن الوليد بن عبد الملك فقال ليزيد :

---

(١) السفط : وعاء معروف عند العرب توضع فيه بعض الأدوات والأمتعة

(٢) سيرة عمر لابن الجوزي : ص ١٥٢ ، أخبار عمر للآجري : ص ٧٠

(٣) البداية والنهاية : ٩/ ٢١٤ ومابعدها

ـ ياأمير المؤمنين ! إن هذا المرائي ـ يعني عمر بن عبد العزيز ـ قد خان من المسلمين كل ماقدر عليه من جوهر نفيس ودر ثمين ، في بيتين في داره مملوءين ، وهما مقفولان على ذلك الدر والجوهر .

فأرسل يزيد الى أخته فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر : بلغني أن عمر خلف جوهراً ودراً في بيتين مقفولين .

ـ فأرسلت إليه :

ـ يا أخي ، ما ترك عمر من سبَد ولا لَبَد[1] إلا ما في هذا المنديل . وأرسلت إليه به ، فحلّه ، فوجد به قميصاً غليظاً مرقوعاً ، ورداء قَشيباً[2] ، وجبَّة محشوة غليظة واهية البطانة .

ـ فقال يزيد للرسول : قل لها : ليس عن هذا أسأل ، ولا هذا أريد ، إنما أسأل عما في البيتين .

ـ فأرسلت إليه تقول له :

ـ والذي فجعني بأمير المؤمنين ، ما دخلت هذين البيتين منذ ولي الخلافة ، لعلمي بكراهته لذلك ، وهذه مفاتيحهما ، فتعال ، فحول مافيهما لبيت مالك .

ـ فركب يزيد ، ومعه عمر بن الوليد ، حتى دخل الدار ، ففتح أحد البيتين ، فإذا فيه كرسي من أدم ، وأربع آجرّات مبسوطات عند الكرسي ، وقُمْقم [3] .

ـ فقال عمر بن الوليد : أستغفر الله .

ـ ثم فتح البيت الثاني ، فوجد فيه مسجداً مفروشاً بالحصا ، وسلسلة معلقة بسقف البيت ، فيها كهيئة الطوق بقدر ما يدخل الانسان رأسه فيها إلى أن تبلغ العنق ، كان إذا فتر عن العبادة أو ذكر بعض ذنوبه ، وضعها في رقبته ، وربما كان يضعها إذا نعس لئلا ينام .

---

(١) يقال : «ماله سبَد ولالبَد» أي لاشعر ولا صوف ، يقال لمن لاشيء له .

(٢) القشب : من ألفاظ الأضداد ، فيطلق على الثوب الخلق البالي ، وعلى الجديد ، والأول هو المراد هنا .

(٣) الأدم : الجلد ، والآجرة : القرميد ، والقمقم : الجرة .

ـ ووجدوا صندوقاً مقفلاً ، ففتح ، فوجدوا فيه سفطاً ، ففتحه فإذا فيه دُرَّاعة وتُبَّان ، كل ذلك من مُسُوح غليظ [1].

ـ فبكى يزيد ومن معه ، وقال : يرحمك الله ياأخي ، إن كنت لنقي السريرة ، نقي العلانية .

ـ وخرج عمر بن الوليد ، وهو مخذول ، وهو يقول : أستغفر الله ، إنما قلت ماقيل لي .

ويرى يزيد أخته فاطمة خالية من كل زينة ؛ لأن عمر زوجها جعل جواهرها في تابوت ووضعه في بيت المال ، فقال لها ـ كما ذكر سابقاً ـ:

ـ إن أحببت أن نعيد إليك جواهرك ، فعلنا .

فقالت فاطمة :

ـ رحمك الله ياعمر ، ماكنت أدعها في حياته ، وآخذها بعد مماته ، لاحاجة لي فيها .

هذه نهاية العظماء الخالدين في التاريخ ، إنها نهاية فيها العبرة والعظة ، فخلود الخالدين يحتاج كما نلاحظ من سيرة عمر الى مقومات أساسية ثلاثة هي :

ـ الإخلاص التامّ في العمل والتفاني في القيام بالواجب وإيثار المصلحة العامة .
ـ الترفع عن زخارف الدنيا وزينتها وتكديس ثرواتها وكنزها .
ـ اتباع منهج القدوة الطيبة في السلوك ، والتزام طريق السيرة الحسنة مع النفس والأهل وفي البيت ، ليكون القول مؤيداً بالعمل الشخصي ، ومنسجماً فيه الظاهر مع الباطن ، والسر مع العلانية .

---

(١) الدُّراعة : جُبَّة مشقوقة المُقدَّم ، والتبان : سراويل صغير مقدار شبر ، يستر العورة المغلظة ، وقد يكون للملاحين ، والمسوح : جمع مِسْح بوزن ملح : وهو البِلاس من الشعر .

وإذا توافرت هذه المقومات ، فمحال أن يجتمع معها الصدق والكذب ، والإيمان والنفاق ، والصلاح والفسق عند إنسان ؛ لأن التناقض بين هذه الأمور سرعان مايظهر في الحياة قبل الممات ، ورد في السنة : «ماأسرَّ عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها : إن خيراً فخيرٌ ، وإن شرّاً فشرٌّ» [1] .

(١) يعني أن ماأضمره يظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وقد أخبر الله في التنزيل بأن ذلك قد يظهر في الوجه، فقال: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفنهم في لحن القول﴾ والحديث رواه الطبراني عن جندب البجلي ، وهو حديث حسن في رأي السيوطي ، وقد تعقبه المناوي فأظهر وجود كذاب في سنده .